

الثقافة الإسلامية المدرسية

ونظامية بغداد

بقلم الاستاذ مصطفى جواد (بغداد)

إن اتخاذ بنائة وتعيين مدرس أو أكثر فيها لتدريس جماعة من طلاب العلم يحضرونها أو يقيمون فيها وينفق عليهم صاحبها أو يجلس عليهم من ماله وعقاره ، لم يكن ذلك معروفاً في صدر الاسلام ، وإنما المعروف من مواضع التعليم « المكتب » و « الكتّاب » ، فقد جاء في الأخبار قول عبد الله بن مسعود الصحابي « لقد أخذت القرآن من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لغلّام في الكتّاب له ذؤابة » . وقال أبي بن كعب « لقد قرأت القرآن وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب ^(١) » . وكان المسلمون في المدينة قد رأوا لليهود فيها « مدارس » وهي جمع « مدراس » يعلمون فيها صبيانهم قراءة التوراة ويكتبونهم الخط العبري ، ولذلك قيل في زيد « يلعب بين صبيان اليهود في المكتب » ، وفي حديث عليّ أنه رأى قوماً قد سدّلو ثيابهم وهم في الصلاة . فقال : « كأنهم اليهود خرجوا من قهرم » ، قال أبو عبيدة في تفسير القهر « بضم الفاء موضع مدراسهم الذي يجتمعون فيه كالعيد يصارون فيه ويسدلون ثيابهم ^(٢) » ، وفي رواية « خرجوا من قهرهم ^(٣) » ، فالمدراس عندهم كالمدرسة عند متعمدي المسلمين المتأخرين ، قال الرضوي « واجتمعت اليهود في مدراسهم ، وهو بيت تدرس فيه التوراة » وقال ابن الأثير : « المدراس فهو البيت الذي يدرسون فيه ومفعال غريب في المكان ^(٤) » ، ومن ذلك العهد كثرت المكتبات والكتّاب في بلاد الاسلام ، ومن آثار ذلك ما روي في أخبار أشعب الطماع ، أنه مر بمكتب وغلّام يقرأ على الأستاذ « إن أبي يدعوك » فقال أشعب : « قم بين يديّ حفظك الله وحفظ أبائك » فقال الغلام : « إنما كنت أقرأ وردى ^(٥) » ، وقالوا في أخبار عبد ربه الصفيّ الخارجي زمن عبد الملك بن مروان « إنه كان معلم كتّاب ^(٦) » ، وكان المكتب أيضاً يطلق على محل الكتابة الخاص ، فقد جاء في أخبار أبي حنيفة النعمان بن ثابت أنه دخل المدينة فأقنأ أباه عبد الله الصادق جعفرأ فسلم عليه قال هو : « ورأيت ابنه موسى في دهليزه قاعداً في مكتبه وهو صغير السن ^(٧) » .

(١) شرح ابن أبي الحديد « ١ : ٢٣٧ » و « ٤ : ٤٥٩ » (٢) النسخ « ٤ : ٣٦١ » (٣) نهاية ابن الأثير « ٣ : ٢٢٠ » (٤) أساس البلاغة والنهاية « ٢ : ٢٠ » (٥) النسخ « ٤ : ٣٢٨ » (٦) النسخ « ١ : ٤٠٣ » (٧) أمالي المرتضى « ١ : ١٠٥ » .

وبقيت هذه الحال في صدر الدولة العباسية وأواسطها، قال النضر بن شميل: «كنا ثلاثة في كتاب واحد أنا وأبو زيد الأنصاري وأبو محمد اليزيدي (١)»، وقيل في ترجمة أبي الحسن محمد بن عبد الله السلمي الشاعر المتوفى سنة ٣٩٣ هـ، إنه قال شعراً وهو في المكتب (٢)، ولما انتقلت المدارس العالية بالمعنى من البيوت والمساجد إلى المدارس الكبيرة بالاسم والحقيقة بنى المكاتب والكتاتيب على عهدنا السابق، فكانت بمثابة مدارس الاستعداد والتجهيز والابتداء اليوم، ولنا نغني بانتقال المدارس من البيوت والمساجد إلى مواضعها المصطلح عليها اقتطاعها بجرة من البيوت والمساجد، فذلك ليس بمراد لأننا نرى في كتب التاريخ من يقول: «قرأت عليه الكتاب الفلاني بداره» و«سمعت منه كذا في المسجد الفلاني» في حين كانت المدارس منتشرة بهيئتها المعلومة، ومن ذلك قول عبد الحميد بن أبي الحديد في خبر نبش القبور الأموية «قرأت هذا الخبر على التقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي بن عبد الله في سنة خمس وستائة وقلت له (٣)»، وقال في موضع آخر «حضرت عند محمد بن معد العلوي في داره ببغداد وعنده حسن بن معالي الحلبي المعروف بابن الباقلاوي وهما يقرآن هذا الخبر (٤) وهذه الأحاديث من تاريخ الطبري...»، وقال في موضع ثالث «حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه على رأي الشيعة الإمامية - رحمهم الله - في داره بدرج الدواب في سنة ثمان وستائة وقارء يقرأ عنده مغازي الواقدي (٥)»، وكانت المدارس ببغداد إذ ذاك نحو الثلاثين مدرسة، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر الوصف عنها (٦)، منها النظامية والتنشئية، والنتقية، والجليلية، والحنيقية، ودار الذهب الأصبهانية، والكمالية، والسهروردية، والناصرية، والتاجية، فذلك الأسلوب من التعليم لم ينقطع استفحاله إلا في هذا العصر، ولم يبق منه إلا شيء قليل بحكم النادر.

وأول من أسس المدارس على هيئتها المعلومة - التي أشرنا إليها - السيد الشريف الرضي محمد ابن أبي أحمد الحسين الموسوي شاعر فريش المشهور المتوفى سنة ٤٠٦ هـ، فقد كان متخذاً للتلاميذ داراً بالكرخ وسمّاها «دار العلم»، وعين للطلاب جميع ما يحتاجون إليه، قيل: أرسل إليه الوزير المهدي الحسن بن محمد بألف دينار، فردها إليه أولى وثانية، فبعث بها المهدي ثالثة وقال في رسالته: «يفرقها الشريف على ملازميه من طلاب العلم»، فلما أحضر مطبق الدنانير بين الطلاب قال الشريف للرسول: «ها هم حضور فليأخذ كل أحد ما يريد»، فقام رجل وأخذ ديناراً فقرض من جانيه قطعة وأخذها ورد الدينار إلى المطبق، فسأله الشريف

(١) الوفيات ١: ٢٢٣ * (٢) الوفيات ٢: ١٠٣ * (٣) النسخ ٢: ٢٠٥ * (٤) خبر شمس النبي - صلى الله عليه وسلم - وتكليفه (٥) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩٢ * (٦) رحلة ابن أبي جبير ص ٢٠٧

عن ذلك فقال : « احتجت إلى دهن للسراج ليلة ولم يكن الخازن حاضراً فافترضت من فلان البقال دهنًا وأخذت هذه القطعة لأدفعها إليه » ، فأمر الشريف في الحال بأن يتخذ خزائن الحاجات مفاتيح بقدر عدد الطلبة ليأخذ كل ما يحتاج إليه ولا ينتظر نازلاً ، ورد الطبق على هذه الصورة (١) ؛ هكذا كان طلاب العلم وقبسة العرفان ، ودار العلم هذه غير دار العلم التي اتخذها أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ ، فان هذه كانت خزائن كتب يردها نهاء العلم وعطاش الحقائق (٢) ، فلنا ذلك لأن الدارين كانتا ببغداد بالجانب الغربي فوجبت إزالة الالتباس .

فيظهر للمتحري أن دار العلم الرضوية هي المدرسة الأولى في نوعها ، ولكنها لم يطلق عليها اسم « المدرسة » ، وقد أخطأ قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان حيث قال عن نظام الملك الحسن بن علي الطوسي المقتول سنة ١١٨٥ هـ ما نصه « وهو أول من أنشأ المدارس فاعتدى به الناس » ، فبين وفاة الشريف ووفاته مدة ٧٩ سنة ، فأين يقع هذا القول من الحقيقة ؟

المدرسة النظامية ببغداد

شرع في عمارتها نظام الملك المذكور في سنة ٤٥٧ هـ في شهر ذي الحجة منها وانتهى منها سنة ٤٥٩ هـ ، وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من السنة ، وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس فيها أبو اسحاق ابراهيم بن علي الشيرازي ، وشرط في أمرها أن لا يدرس فيها إلا شافعي ، وكان الوزير قد قرر مع أبي اسحق الشيرازي الحضور يوم افتتاحها للتدريس فلم يحضر ، وكان الناس قد حضروا المدرسة على اختلاف طبقاتهم فبحثوا عنه فلم يجدوه فاستدعى الوزير للتدريس فيها أبا نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ ورتبه فيها مدرساً ، ثم ظهر الشيخ أبو اسحق الشيرازي في مسجده الذي كان يدرس فيه ، وتغير عليه أصحابه بسبب فعلته وفتروا عن حضور دروسه وراسلوه في أنه إن لم يدرس بالنظامية مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه ، فأجابهم إلى ذلك وعزل ابن الصباغ من المدرسة بعد تدرسه عشرين يوماً (٣) . قيل : ولما بلغ علماء ما وراء النهر خبر بناء النظامية اتخذوا للعلم مآتماً وحزنوا على سقوط حرمة العلم وقالوا : « إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا يتطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة لجاذب الشرف والآتي والمناسبة الطبيعية ، ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا ، ويتراحم عليه لا لتحصيل شرف العلم ، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة القانية ، فيرذل العلم برذالتهم ، ولا يشرفون بشرفه » ، ألا ترى إلى علم الطب ، فإنه مع كونه

(١) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب « ص ١٨٥ - ١٨٦ » (٢) الوثائق - ١ : ٢١٧ - وتاريخ الخلفاء .
 لسيوطي ص ٤٢٣ ، مجمع البلدان في مادة « بن السورين » (٣) الوثائق - ١ : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤

علمًا شريفًا تعاطفته أراذل اليهود فأزروا بشرف علم العرب، وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان القاسد (١) . . . وقد شاع اسم المدرسة بظهور النظامية كما ظهرت دار الحديث ودار القرآن في التسمية .

نهج المدرسة النظامية

إن مراد القديما بلفظ العلم هو الدين وما يؤيده ويمهده لا العلم المطلق المضاد للجهل كما هو في عصرنا ، فكان نهج النظامية قاصدا إلى غايات خمس هي (أ) تدريس مذهب الشافعي مع علم الخلف بينه وبين المذاهب الأخرى (ب) تدريس علم العربية من لغة ونحو وصرف (ج) تدريس التفسير بفروعه (د) الوعظ في المدرسة والحث على التمسك بالشرعية (هـ) المناظرات والمنافرات والمرجمات في الأمور المشككة وذات الاختلاف .

كان مدرس النظامية واحداً في أول أمرها - كما مر بنا - وبمرور الزمان برزت شدة الاحتياج إلى أكثر من مدرس ، فصارت يعين لها « مدرس دين وفروعه » ومدرس لغة ونحو ، ومعيد وهو معاون للمدرس يعيد درسه على التلاميذ ليسمعوه جيدا ويستمكن من أذهانهم ، وعين لها واعظ مشهور ، وجعل فيها خزانة كتب مخطوطة بأقلام مشاهير الكتاب ، وكان يقيم فيها العلماء والشعراء الغريباء ويستعينون بأوقافها ، وكان المدرس يجلس على سدة التدريس ويرتدى الطرحة وهي كالتبليسان ، وعند تعيين المدرس يتخلع عليه ، وبعد ما كان العلماء يتورعون عن تولي منصب التدريس ويزهدون فيه كل الزهد ، جاء زمان قوم يتنافسون في الدنيا ويتسارعون إلى تولي المنصب ، بل منهم من انتقل من مذهب إلى آخر للحصول على المنصب ، كان المبارك بن أبي طالب المبارك المعروف بابن الدهان الوجيه الواسطي حنبلياً وتفق على مذهب أبي حنيفة ، فلما شغل منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية انتقل إلى مذهب الشافعي ليليه ، فقال فيه مؤيد الدين أبو البركات بن زيد التكريتي :

ومن مبلغ عن الوجيه رسالة وإن كان لا تجدى إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت قول الشافعي تديناً ولسكتنا تهوى الذي منه حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فأفطن لما أنا قائل (٢)

أحوال المدرسة النظامية

قال ابن جبير بعد دخوله بغداد سنة ٥٨٠ في المدارس: «وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسة ، ولهذا المدارس أوقاف عظيمة وعقارات

(١) الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٨٦ ، والزمان المذموم زمان تعطب الدين الحنفي مؤلف ١١ غلام .

(٢) كتابنا - السنون الضائعة من الحوادث الجامعة سنة ٦١٢ هـ وهو من التصانيف المخطوطة .

بحسبة تصير إلى الفقهاء ، ويجبرون منها على الطلبة ما يقوم بهم ، ولهذا البسلا في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم ونفر عظيم فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنين الصالح ، وقال في الوفا والفقهاء « فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضى الدين القزويني رئيس الشافعية وفقهه المدرسة النظامية ، والمشار إليه في العلوم الأصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لعصر المذكور ، فصعد المنبر وأخذ القراءة أمامه في القراءة على كرسي موضوعة فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونهات محرجة مطربة ، ثم اندفع الشيخ المذكور لطلب خطبة سكون ووقار وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله - عز وجل - وإيراد حديث رسوله والتكلم على معانيه ، ثم رثقته شأبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ... ودفعت إليه عدة رفاع فيها (٤٠) فجعل يجاوب على (١) كل واحدة منها وينفذ بها إلى أن فرغ منها وحان المساء فنزل وافترق الجميع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ، ظهرت فيه البركة والسكينة . . . وشهدنا له مجلساً ثانياً اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور ، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمة الشافعية ، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آفاق تشوقت له النفوس ، فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسروراً بحضوره ومتجملاً به فأتى بأفانين من العلوم على حسب المتقدم الذكر ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين (٥) الخجندی (٦) » .

وفي سنة ٥٨٩ هـ ، أمر الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها (٧) ، وفي سنة ٦٤٦ غرقت المدرسة النظامية مع ما غرق من بغداد بفيضان دجلة ، وبلغ علو الماء فيها ست أذرع ، ثم غرقت سنة ٦٥٣ فوقع حائط رواقها ، وفي سنة ٦٧٠ احترق سوقها جيمه وهلك فيه كثير ممن كان في الغرف وذهب من أموال الناس شيء كثير ، فأمر صاحب ديوان العراق علاء الدين عطا ملك الخويني بعمارته من حاصل أوقافها (٨) .

وفي سنة ٦٧١ جلس الخواجه شرف الدين هرون بن الصاحب شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان المالك الايلخانية على السدة بالمدرسة النظامية وألقى دروساً ، وكان قد حضر المدرسة كافة أرباب الدولة والمدرسون والعلماء والفقهاء ليستمعوا دروسه ، وكان عمه مع الحاضرين ، ولما دخل محمد بن بطوطة بغداد أي سنة ٧٣٧ هـ كانت النظامية عامرة ، وقد

(١) يجاوب عليها : أي يكتب عليها جواباً ولذلك لم يقل « يجاوب عنها » لأنه في معنى آخر (٢) ينسب إلى خجندة ، وراه النهر قبل : قتله سنقر الطويل سنة ٥٩٢ هـ في ثنية اسمهان (ابن الاثير ١٢: ٥٢)
(٣) راحة ابن جبير (١٩٧ - ٨ - ٩ - ٢٠٨) (٤) ابن الاثير « ١٢: ١٤٣ » (٥) اخوات الجامعة في المائة السابقة .

أشار إليها فقال : « وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء (١) كل صناعة فيها على حدة ، وفي وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسبها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية » ، ومن هذه الكلمة الصغيرة تقف على تقدير ابن بطوطة في وصف مدارس بغداد بعكس ابن جبير ، مع أن الأول كثيراً ما أطنب وأسهب في وصف جمال البلدان والنساء في بعض البلدان .

وفي سنة ٥٧٣٩ هـ ، أي بعد دخول ابن بطوطة الأول لبغداد ذكرها « حمد الله المستوفى » المؤرخ الفارسي في كتاب « نزهة القلوب » الجغرافي ، وكنائها « أم المدارس » في بغداد (٢) ، وجاء ذكرها مع ذكر علي بن أبي القاسم أحمد القزويني المدرس بها المتوفى سنة ٧٤٠ .

ثم إن الرحالة الألماني « نيبهر كارستين » لما قدم بغداد في منتصف القرن الثامن عشر للميلاد لم يجد للنظامية أثراً فيصفه مع ما وصفه من الآثار والأطلال (٣) ، وأسباب الزوال كثيرة في أيام بغداد الأخيرة أيام التعصب الديني والسياسي والجهل ونبت العلم ، ولاسيما في عهد ولاية الأتراك الجهة الظلمة ، وببغداد اليوم منارة في زقاق من محلة باب الأغا لم تبق إلا قاعدتها وليس حولها إلا البول والغائط ذهب بعضهم إلى أنها بقية منارة المدرسة النظامية ، وهو مذهب لا يرضه العقل ، ولكن يقبل غيره ، لأن المؤرخين الخططيين ذكروا أن المدرسة التنشئية (وتعرف بالبهائية أيضاً) كانت في جوار النظامية ، فيجوز أن بقية المنارة منها أو من مسجد ، ووضع المؤرخ الإنجليزي لسترنج في كتابه « بغداد على عهد الخلافة العباسية » رسالة النظامية في إحدى خرائطه « على شاطئ دجلة » ، بما يقرب اليوم من شريعة السيد على السلطان ، وهذا من الغلط الواضح ، لأن النظامية كانت بمحلة نهر المعلى ببغداد ، قال أبو القاسم مكى بن عبد السلام المقدسي في موت الخطيب المؤرخ البغدادي « وأخرج جنازته من حجرة تلي المدرسة النظامية من نهر المعلى (٤) » ، قال ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ ما صورته « نهر المعلى ، وهو اليوم أعظم وأشهر محلة ببغداد ، وفيها دار الخلافة ، وهو نهر يدخل من باب بيزرز ، ياق إلى الآن مستمدة من الخالص (٥) ، فيسير تحت الأرض حتى يدخل دار الخلافة ، وهو المسمى بالفردوس منسوب إلى المعلى بن طريف » ، وقال صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ ما نصه « ولا أثر له الآن والمحلة المذكورة هي من عقد الحديد إلى العقد المصطنع في الشارع الأعظم ، ومن الریحانيين وباب النوبختي إلى باب جامع القصر إلى العقدين ، وفيه السوق والدكاكين (٦) » وهذا ما يستحيل به كون النظامية على دجلة ، ولعل سبب

(١) هو اليوم سوق الميدان الممتد إلى قرب جامع مرجان المنطوق نحو الغرب ويعرف بسوق البزازين

(٢) لسترنج ٢٩٩٥ (٣) لسترنج ٣٠٠ (٤) معجم الأدباء « ٢٥٩ : ١ » (٥) السواب « من نهر بين »

كما في تاريخ بغداد لخطيب ، وثاقب بغداد لابن الجوزي (٦) ، مرصد الاطلاع على الامم والحكومات والباق ص ٤٠٧

غلط هذا المؤرخ العلامة أن الخططين ذكروا في وصف القرية إحدى محال بغداد الغربية. « أنها في الجانب الغربي مقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية » فنان أنها مشرعة المدرسة وما هي إلا مشرعة سوقها .

مدرسو النظامية المشهورون

أبو اسحق إبراهيم بن علي الشيرازي المذكور (٣٩٣ - ٤٧٦ هـ) ، أبو نصر عبد السيد ابن الصباغ المتقدم خبره (٤٠٠ - ٤٧٧) ، أبو سعيد المتولى عبد الرحمن النيسابوري (٤٢٦ أو ٧ - ٤٧٨) ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (١) (٤٥٠ - ٥٠٥) ، أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي (٥٢٠) ، أبو الفتح أسعد بن أبي نصر المهيني (٥٢٧) ، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (٤٢١ - ٥٠٢) ، معين الدين أبو منصور سعيد بن محمد الرزاز (٥٣٩) ، علي بن محمد القصبي (٥١٦) ، أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (٤٦٦ - ٥٣٩) ، وأبو الحسن علي بن محمد الكياهراسي (٤٥٠ - ٥٠٤) ، أبو نصر أحمد ابن عبيد الله الشاشي ، درس سنة ٥٦٦ ، وعزل سنة ٥٦٩ ، رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزويني المشار إليه آتقاً (٥٩٢) ، أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد ، كان بها معيداً لمدرس (٦٣٢) ، السيد السماسي محمد كان معيداً مع ابن شداد ، المبارك بن المبارك ابن الدهان (٥٣٢ - ٦١٢) ، شهاب الدين محمود بن أحمد الرنجاني (٦٥٦) ، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان (٦٣١) ، أحمد بن ثبات الهامى (٦٣١) ، أبو محمد نجم الدين عبد الله البادراني (٦٥٥) ، شمس الدين محمد بن الكبشى (٦٩٤) ، أبو البيان نور الدين الحلبي (٦٨٧) ، محمد الدين علي بن جعفر درس بها ، ثم قتل سنة (٦٨٢) ، نجم الدين بن أبي العز درس بها سنة (٦٨٧) ، نصير الدين الفاروق عين للتدريس بها سنة ٦٨٧ ، علي بن أبي القاسم أحمد القزويني توفي سنة ٧٤٠ ، وقد قدمنا ذكره ، علي ابن أحمد الموصلى كان معيداً بها ، وفي سنة ٦٩٢ أنجز كتابة ترجمة الشاهنامة بالعربية للبندارى .

بعض خزائن الكتب النظامية

محمد بن أحمد الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧ ، أبو يوسف يعقوب بن سليمان الاسفرائيني ، عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بحجب الدين ، ذكره عبد الحميد بن أبي الحديد قال : « حضرت أنا و غلام بالنظامية ببغداد في بيت عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بالحجب خازن دار الكتب بها ، وعندده في البيت باتكين الرومي الذي ولى إربل أخيراً وعندده أيضاً . جعفر بن مكي الحاجب ... (٢) » .

(١) بتخفيف الراءى على الصحيح كما في نزل من الصباغ

(٢) شرح ابن أبي الحديد « مع ٣ - ٣٨٢ »

هذه خلاصة ما كتبت عن المدرسة النظامية ببغداد، وكانت عدة مدارس تعرف إذ ذاك بالنظامية منهن نظامية نيسابور.

وقد شاعت المدارس بعد نظاميات الوزير نظام الملك شيوعاً عظيماً، وتأثر الوزراء آثار هذا الوزير، فبنى تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو وزير ملكشاه السلجوقي أيضاً مدرسة ببغداد لشافعية سماها التاجية، وجعل الشيخ أبا بكر الشاشي مدرسها، وكان افتتاحها سنة ٤٨٢ هـ ثم بنيت ببغداد المدرسة التقتية نسبة إلى ثقة الدولة بن الأنباري، والمدرسة التقتية بناها خوارزمي التقتي، وقد قدمنا أنها تعرف بالمدرسة البهائية، ومدرسة غير الدولة ابن المطلب، والمدرسة السكالية، والمدرسة الشرفية، والجهادية، والزردية، والبشيرية، والعصية، والبكرية، والمستنصرية، والجيلية، والنعمانية، ومدرسة عبد الوهاب، ومدرسة ابن الأثير، والمدرسة الاسماعيلية، والمرجانية، والمسعودية، ومدرسة الايكجية (١). وأعظمهن أوقافاً وسعة واحتفالاً وتأثيراً واشتهاراً ولنراً للثقافة الاسلامية « المدرسة المستنصرية » نسبة إلى المستنصر بالله العباسي، ولا تزال آثارها قائمة على شط دجلة ببغداد الشرفية، وتليها في العظمة المدرسة المرجانية نسبة إلى أمين الدين مرجان بن عبد الله الرومي والى بغداد في زمن السلطان أويس الجلجاري، وهو من السلامين المعروفين بالشيخ حنفية، وأصلهم من المغول، وهذه المدرسة اليوم اسمها « جامع مرجان » بديعة البناء عظيمة الأوقاف مدهشة الرياسة منقوشة جدرانها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشروط الوقفية وذكر الوقوف، وهي من مبانيات منتصف القرن الثامن للهجرة.

هنا تقف القلم اليوم وسنبتهل الفرص للكتابة عن المدرسة المستنصرية التي ذاع صيتها في الآفاق، وانتشر ملابها في أقطار الأرض، وشاع فضلها في أرجائها حتى غطت على شهرة المدارس كلها، والله المعين.

[بغداد]

مصطفى جواد

(١) ذكرنا بين هذه المدارس مع قول ابن جبير أنها

اطبعوا مطبوعاتكم

في

مطبعة المعرفة

في مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد بنابة الدقة والاتقان
الادارة: رقم ٤ شارع عبد العزيز بالقاهرة